الفصل الثانى

حرب السنين السبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم . غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا . فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا ، وبروسيا قلقة فى سيليزيا ، وبريطانيا قلقة فى هانوفر ، وفرنسا قلقة فى الهند ، وأمريكا ، وعلى الرين . ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان . وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية ؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة ، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الرقت لتقتنص مستعمرات فرنسا : وهولندة ، وأسبانيا . وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترة على أرباح التجارة وفرصها ، وفى بروسيا على الحرب الظافرة ، وفى فرنسا على تفرق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى . وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق ، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين ، طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربيـــة .

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى . ذلك أن ماريا تريزا ، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين ، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها الهابسبروج ، وكل غضب المرأة المهانة ؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث ، الملك الذى كفلت كل دول أوربا العظمى وحدة أراضيه ؟ كيف وهى المرأة التى سيثنى بعد حين ، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل ، على

« بسالتها وكفايتها » ويمتدح الطريقة التى « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها . . . حين بدا أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها. (١) لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المحطمة ، واكتساب حلفـــاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التى يتدرب فيها جيشها ؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ فى بوهيميا ، وإلى أولمتز فى مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها يمين الولاء لها ، فالولاء فى دمهم وفروسيتهم ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملا. وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء ، وجلبت لها خيرة معلمى الهندسة ، والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « فى عهدها بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . » (٢)

وكانت الدبلوماسية هى الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطلعت بشئونها الآن القيصرة اليزافيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنيها . وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع انجلترة ، ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنفصل الذى أبرمته انجلترة مع بروسيا (١٧٤٥) والذى اكره النمسا على التخلى عن سيليزيا . وكانت سياسة انجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها فى البحر البلطى من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أى خطر يتهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا فى تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها فى احراز النصر فى الحرب . ومن ثم وقعت انجلترة فى ٣٠ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من انجلترة ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥ر٠٠٠ مقاتل فى ليفونيا ، وعلل الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف تتصرف انجلترة مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التى قامت بها اسكتلندة ضد انجلترة ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو. وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التى تتحدى بريطانيا فى البحار أو المستعمرات ؛ فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها فى أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطويرية البريطانية آمنه من الخطر فحسب ، بل سيدا غير منازع . كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم ، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت ، أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وانجلترة . وأليس خطراً كبيرا أن يسمح لبروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لبروسيا جيشا عظيما سيساعد انجلترة ، بناء على هذه الخطة ، على حماية هانوفر ، ولكن ليس لها بحرية ، ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا فى البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لبروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ، أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبة فى القارة ، أن كان فى هذا تمكينا لبريطانيا من « أن تسود البحـــار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك فى أوربا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترة وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال فى القارة . فستقدم إنجلترة المال ، ويخوض فردريك معارك اليابس ، وتكسب انجلترة نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقا للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً ؛ وهو وضع أسوأ — اتحدت ضده لما إستطاع أن يقاومها كلها ، وفى مأزق كهذا لن يقوى على نجدته غير انجلترة . ولو أبرم الميثاق الذى عرضته عليه انجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك فى ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التى تعهدت فيها انجلترة وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى المانيا ، وكان الحليفان يأملان أن تحمى هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعا أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث إنهاء رسمى للحلفين اللذين ربطا إنجلترة بالنمسا ، وفرنسا ببروسيا ، فى حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا — كما قالت للسفير البريطانى — حين علمت أن أصدقائها الانجليز أبرموا ميثاقا مع « الخصم اللدود المقيم لشخصى ولأسرتى[٣] ». وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغى ألا تسىء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دبومبادور ، التى كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة فى المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson و Cotillon IV (الجونلة الرابعة — أى رابعة خليلات لويس الخامس عشر) . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها فى وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذى لقيته فى وزاره الكردينال فلورى المسالمة . ففى ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وانجلترة مائة وثلاثون بارجة[٤] ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تتجه فرنسا الآن حليفا لها » ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترة سبقتها ! إلى النمسا ؟ — ولـــكن فى الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمان ميراث ماريا تريزا ، وإنضمت إلى بروسيا فى مهاجمتها ، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبروج ، وفرنسا تحت حكم البوربون ، عدوين قرونا عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طـــول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذى إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — فى ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجبته القـــارة الأوربية فى القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقبهم بصيرة وأشدهم إصرارا . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً فى السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داون ، وصراعا فى الذكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمير كاونتز أحكم رأس فى أوربا[٥] » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثانى ، أما هو فأصبح فى دخيلة نفسه تلميذا لفولتير[٦] . ولمـــا كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكما لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية فى دمه. وهكذا أصبح وهو فى الحادية والثلاثين مبعوث النمسا فى تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقيا على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغا حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهـــو يعرضها : « هاك وزيرك الأول[٧] » . وفى عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوى فى مؤتمر أكس لا شايل . وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزا بأصرار وبراعة جعلا الإمبراطورة حتى فى هزيمتها تشكر له خدماته واخلاصه . ولما فاتحها فى تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدى لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاونتز بين لهـــا أن هذا محال بالتحالف مع انجلترة التى ركزت قوتها فى البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما فى اليابس . وبين شقى الرحى هذين — فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية — يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفى ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء بهاء مقدمه الرسمى على المدينة ، وأبهج عامة الشعب باحساناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجمله ، وخصل شعره المبدرة بعناية[٨] . قال عنه كارليل « رجل شديد الحيلاء ، غريب الأطوار ، وقح بعض الشىء[٩] » . ولكنه وقع فى نفس الملك ، وخليلته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة. وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندة ، وسكسونيا ، بالإسهام فى تأديب فردريك . وتساءل ما الذى جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا — اللهم إلا تضخيم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنث فردريك المرة بعد المرة بعهده حين وجد الحنث فى صالحه ؟

وكان كاونتز يحرز تقدما طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لهـــا ، وحولت له كامل السلطة فى الشئون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ فى بلاط فيينا خطته طويلا ، فشرحها ودافع عنها فى صبر ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفى ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذى خلف كاونتز سفيرا فى باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى فى كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور . وأرسل كاونتز خطابا كلـــه إطراء إلى « الخليلة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للمث سراً . ففعلت . وكانت المذكرة من ماريا تيزيزا ، وهذا نصها .

« إنني بصفتي إمبراطورة وملكة ، أعد بألا يذاع شيء على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمي على الملك المسيحي جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية في هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطي إقراراً ووعدا مماثلين .

فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥[١٠] .

وعين لويس الأبيه دبرنيس والمركيزة دبومبادور للاجتماع سرا بشتارهمبرج في جناحها « بابيول » . هناك إقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية في حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى في تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزراة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أي عمل عدائي ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا في حرب مع انجلترة ، وفي حالة نشوب هـــذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيويورت ، وقد تسمح نهائيا بأن تكون الأراضي المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه في حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لايلزم النمسا بأن تعين فرنسا على انجلترة . وكان له عذر في أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوي — الذي طالما هزم ، والذي كانت قيادته في الحرب الأخيرة غاية في السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا مالم تقدم لهـــا البراهين على اتصالات فردريك بانجلترة . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتا . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات في الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق في آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا ، والنمسا ، وبولندة ، واسبانيا — فى مخطط يهيمن به على مصائر أوربا[١١] . وعليه ففى أول مايو ١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساى قلب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوربا وتوازن القوى . فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد فى ممتلكاته الأوربية من أى دولة غير انجلترا ، خف الطرف الأخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية ، وبالمعونات المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد انجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا مالم تكن بروسيا هى المعتدية على نحو واضح . وإذ لم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هـــو وخليلته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاونتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالأنضمام إلى الحلف الجديد ، فقد كانت اليزافينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦ إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها أن تعلم بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساى . واضطر كاونتز إلى كبح حماستها ، فهـــو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل ١٧٥٧ . فتريث حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ ، ثم وقع الاتفاقية التى أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت انجلترة ؛ الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيشل حركة النمسا ، قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى إعلان للحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونير ١٧٥٥ تستولى على السفن الفرنسية كلما إستطاعت . وردت فرنسا بالأستعداد لغزو انجلترة ،

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التى كان البريطانيون قد أستولوا عليها فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعزيزا للحامية البريطانية الصغيرة فى الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية فى جبـــل طارق . وفى ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الانجليزى أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجى فى البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا فى باريس وفرساى ، وإعدم بينج على سطح سفينته فى ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للأنتصار . وعبثا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هـــذا هو الأسلوب الذى تتبعه انجلترة فى « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفى ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت انجلترة الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عالما بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أستردادها فى أى وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارده هـــو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة ؛ فبروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية فى وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الإلمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء المتناثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ ، وسكان انجلترة ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا فى سيليزيا ، التى ظل نصفها كاثوليكيا متعاطفا مـــع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية ، التى كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولندة الكاثوليكى ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع ؟ فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا المرجل الذى يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوى ، والقواد الأكفاء ، أما عقله فقريع فى حدة ذكائه لأى عقل آخر ؛ وهـــو أفضل حكام عصره تعليما ، وقد أثبت جدارته فى رسائله وأحاديثه ، وجدله مع فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ، ولعل أموره كانت تجرى بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف اليزافيتا بتروفنا ، وماريا تريزا ، ومدام دبومباهور ، بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات أوربا[١٢] » ؛ ومن بواعث العزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد يسلكون مسلك الحمقى بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا ، فأن فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لا غنى عنها لحرب ممكنة . فى هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعى للحياة البروسية مخافة أن يختل التنظيم الإقطاعى لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه ودينه . أنفق على صيانته تسعين فى المائة من موارده[١٣] وسماه « أطلس » الذى حملت كتفاه القويتان الدولة[١٤] . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة ؛ وعلى الســير فى ثبات صوب الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير إتجاهه ، والمناورة بكتلته كلها ، وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس الجيش فى بداية الحرب خيرة القواد فى أوربا بعد فردريك نفسه — شفيرين ، وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه ولم يترك له جواسيسه شكا فى أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقا من القوى المعادية . وفى ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه فى درسدن ووارسو على نسخ من رسائل سرية تبادلتها الوزارتان السكسونية والنمساوية ، أقنعته بأن هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها أن حالفهما الحظ ،

وأن فرنسا تتستر على المؤامرة[١٥]. وفى ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره للقائد البروسى فى كونجزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادى فى الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستنتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا[١٦] » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفا خلال الشتاء[١٧] . وخمن أن الحلفاء يترقبون ربيع ١٧٥٧ ليزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذى يتهدده هى شل حركة عدو واحد على الأقل من إعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم فى مقاتلته . ووافقه شقرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاه إلا يعطى اعداءه ذريعة لأتهامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجباتة[١٨] » وكان قبل ذلك بزمن طويل ، فى « ميثاق سياسى » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية ، والقوة السياسية التى لاغنى عنها لمن يريد البقاء[١٩]. ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى فى كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمكيافللى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو[٢٠] . وأخبره متشل ، الوزير البروسى فى إنجلتره ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية فى الحفاظ على السلام فى القارة ، فهى تدرك الضرورة القاهرة التى يواجهها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الإنتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية[٢١] .

وفى يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيدا بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاونتز رفض إرساله ؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هـــو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أتخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد[٢٢] » . وأرسل فردريك رسالة ثانية للامبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفا هجوميا ، ومع أن موقف أوربا الدقيق يضطرها إلى التسلح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسالمة فردريك) ، ولكنها لن تربط نفسها بأى وعـــد يمنعها من التصرف وفقا لمقتضيات الظروف[٢٣] » . وكان فردريك يتوقع هـــذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ — طـــريد الـــقانون

١٧٥٦ — ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فاترة ليجند ناخب سكسونيا حليفا له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة — وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصدق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم بجيش فى أوربا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات السكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناخبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بازالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق .

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازى من مكانه ، فالتقى به فردريك وهزمه فى لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن (أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ، وحشد الأربعة عشر ألف جندى من أسرى السكسونيين فى فرقه ، وحجته أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية . فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذى زج بعدوانه الصارخ أوربا فى خضم الحرب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك. وأعلنت الأمارات الألمانية الحرب على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحيق بها ما حاق بسكسونيا إذا انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع كاونتز وقتا فى تذكير لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت الدوقينة ؛ ابنة ناخب سكسونيا ، على حميها فى أن ينقذ أباها . أما مدام دبومبادور ، التى عللت نفسها من قبل بأمل الاستمتاع بملكها فى سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتفديرا لمعوناتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ ٧٧،٢٧٨ جنيها ؛ [١٤] وانقليت دبومبادور امرأة حربية . أما لويس الذى كان عادة بطىء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لاتنثنى. والتزمت فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساى الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف دفاعى هجومى مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثنى عشر مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص قوة فرنسية قوامها ١٠٥,٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . » ووعدت بألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود فى الأراضى الواطئة

النمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضى الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونية لقاء دوقيات أسبانية فى إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطانى بتكريس مواردها كلها تقريبا لالتهام « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة فى أن يستميل روسيا إلى مد يد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت إروسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندى فى الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها فى حالة الانتصار كل الشطر البومرانى الذى سلم لها فى معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥،٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولندة التى كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسى النمساوى ، وهكذا تكتلت ضد فردريك كل أوربا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولندة ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسى — كاسل .

ووجدت إنجلترة من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثانى رأى فى فزع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناخبة التى قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عونا ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء يشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمرا لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت انجلترة بمعزل عن الحرب القاربة ؛ فى تلك اللحظة كان مصير فردريك فى خطر . وكان بت ، الذى عين وزيرا للخارجية فى ١٩ نوفمبر ١٧٥٦ ميالا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تذودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز انجلترة كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثانى المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غـير رأيه . وصرح أن فرنسا المتنصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوربا ، وعلى انجلترة أيضاً بعد قليل ، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر ، ولابد من أكراه فرنسا على استنزاف قوتها فى أوربا ، بينما تنتزع إنجلترة المستعمرات والاسواق من البحار التى تفتحها .

وعليه فى يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانياً حلفاً ثانياً مـع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالى لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقيل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهـواء السياسة حكمتها ، وتعطل إرسال العون لفردريك ، وظل عاماً تقريباً يقف وحيدا ، ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل، أمام جيوش تحدق به من كل صوب ، ففى القرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفى الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفى الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا ، وفى الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . فى ذلك اليوم الذى شهد سـقوط بت ، وسم الإمبراطور فرانسيس الأول — زوج ماريا تريزا ، اللطيف الوديع عادة — فردريك رسميا بأنه خارج على القانون ، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنسانى عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

فى ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزراته فى برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجرى الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت ، وإن تعثر حظى فأسرت ، فإنى أمنع أقل اعتبار لشخصى ، أو أدنى التفات لأى شىء قد أكتبه وأنا فى الأسر . (٢٥)

وكانت لفتة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية . وكان أمله الوحيد فى ملاقاة أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التى ترسلها انجلترا لهانوفر اعاقتهم برهة . أما النمساويون فيحشدون فى بوهيميا وموراڤيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة لملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف فى بوهيميا وملاقاته فى التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفى ٦ مايوعلى مقربة من براغ ، التقى ٦٤ر٠٠٠ بروسى بجيش نمساوى عدته ٦١ر٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين فى فاتحة المعارك الكبرى فى هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل فى المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترقة المستنقعات والماء يغطى خصور الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيفرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاما ولف العلم حول بدنه ، وركب رأسا فى مواجهة العدو ، فضرب بخمس رصاصات فى وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو فى غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصرا . وكان التقتيل فى الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، فى هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم : وتقهقهر من بقى من النمساويون وعددهم ٤٦ر٠٠٠ إلى القلعة فى براغ ، وتهيأوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيرا ، لأن المرشال ليوبولد فون داون ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيـا على رأس ٦٤ر٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقا يقود ٣٢ر٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءا من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجحافل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحربية فى هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا فى الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين « هل أنتم مخلدون ؟ » (٢٦) . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٫٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٫٠٠٠ إلى براغ ؛ وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفى لايتميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى ، وبكى ، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما إغراء أحمق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلمينى ، أميرة بايرويت ، التى أحبها أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائساً بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتى العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلى بالكتابة الى المسيو دميرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠٫٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إنى أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لايقاس (٢٧) .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلمينى طريقة أخرى : كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسى — النمساوى ، وحاول تانسان ولكنه أخفق[٢٨]، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إربا ، فلا يكفى أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدبورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسى كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سوبيز ، القائد الأثير لدى بومبادور ، فى الطريق للانضمام إلى الجيش الأمبراطورى عند إوفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستربه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثانى . وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم فى كلوستر — تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفريين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً فى نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠ر٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستيبان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠ر٠٠٠ بروسى عند جروس — ييجززدورف (٣٠ نوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته فى يوهيميا تقضى على أمل فردريك فى قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلا هوتها ، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقيين وفكر فى الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفى ٢٤ أغسطس أرسل الى فهلمينى خطابا يسبح فيه بحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجى الأكاذيب المقدســة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهى فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويذتها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير ألعوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم ، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثر هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجاً ، أو مثل ســقراط مكبلا بالأغلال ، إلى فضائلنا ورذائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه. لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذى الذى لا ملاذ غيره يا شقيقتى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » . (٢٩)

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحبنى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجراً فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهاراً من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عثرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه . ولك أن تعتبر هذا قرارى الذى لن أحيد عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعنى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفجائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريتك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك ، ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختم الآن ، ولكنى سأظل دائماً ، مع أعمق الاحترام ، أختك فلهلمينى » . (٣٠)

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها ، فأمن على حججها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك منذ ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو ، الذين ترى جلالتكم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتـــال أو الموت . » . يجب أن تذكركم من بلاط يرى فى غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولى . . . وأن أخلاقنا ومركزك فى غير حاجه اطلاقا لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هى غالية فى نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوربا لاتستقر طويلا على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعدادا للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولى لما استحسنها الناس فانصارك سيدينونها ، وخصومك سينتصرون (٣١) » .

وأجاب فردويك ثئرا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر ، وأحيا وأموت ملكا (٣٢) » .

وبين قصائد الشعر (التى نظمها دائما بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسى ، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان فى ليبزج ، فى ١٥ اكتوبر أرسل فى طلب يوهان كرستوف جوتشيد (الذى كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألمانى ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً — وحتى فى اسم الأستاذ هناك خمسة فى صف واحد ، فكيف تحدث اتساقا فى الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد ؛ ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليبزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية ، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبى جاءته أنباء أسوأ : قوة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على برلين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزخف لتطبق على العاصمة البروسيه . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيرا من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع فى يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هاديك توقف فى ضواحى العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧ر٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ اكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقيه إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأتته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسى بقيادة سوبيز دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الأمبراطورى الذى يقوده دوق ساكس — هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجه ، وقاد جنده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميلا غربى ليبزج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١ر٠٠٠ مقاتل فى خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١ر٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى فى تجنب الإلتحام بفردريك وارهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سوبيز عليما بانهيار النظام فى صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة فى مقاتلة فردريك (٣٣) . غير أن هيلبورجهاوزن الح فى طلب القتال ، فأذعن سوبيز . وقاد القائد الألمانى جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرتهم . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت فى روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٣و٨٠٠ مقاتل ، تحجبهم التلال وهم يسيرون بسرعة مدربة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزموهم قبل أن يستطيعوا اعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . وتقهقر الحلفاء فى فوضى تاركين ٧ر٧٠٠ قتيل فى ساحة القتال ، أما البروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته : وفى كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ne vous attendais pas si tot, en si grdànd nombre.

« ولكنى أيها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وبهذه الكثرة[٣٤]

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع فى الخسائر ، ومن براعة القيادة التى أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرته إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لإنتصاراته وأشادوا به مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التى يحاربونها فى وطنهم [٣٥] واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى) [٣٦] ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون فى (إستهم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف)[٣٧] .

واغتبطت انجلترة معه ، وجددت ايمانها بحليفها . واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ فى شوارعها ، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد ليرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفى للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت انجلترة وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفئا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء فى النهاية [٣٨]) ، ونكث بت باتفاقية كلوستر — تسيفين لأنها ليست إلا جبنا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشا أفضل لحماية هانوفر ومعاونة فردريك (اكتوبر) ، وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٦٤٫٠٠٠ جنيه ، وافق الآن على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنية لتمويل (جيش عمليات) ؛ واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع ، الذى قال عنه بيرنى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناى فردريك .

٤ — الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ — ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج ، فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣,٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتز ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١,٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨,٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك — بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧,٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠,٠٠٠ طالر ، ومؤناً تكفى لإعاشة ٨٨,٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد ، عددهم إلى ٨٣,٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون ؛ وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسيراته ومعاركه ، وبدا ساخطاً على الغارات التى دنس بها الجنود الفرنسيون الكنائس الكاثوليكية فى سكسونيا وناشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلا فى إثنى عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة. وانضم إليهم فى الطريق فلول القوات البروسية التى هزمت فى شفايدنتز وبرزلاو . وفى ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل تمساوياً من ٧٢,٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو. فى ذلك المساء خطب فردريك فى كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لاتجهلون أى نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز . .. وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعادتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتى التى لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لما أفقت من عوامل ضيق وارتباكى .. فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعال نفسى بأنكم فى الفرصة القادمة لن تضنوا بأى تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإننى لأشعر أننى لم أحقق شيئاً لو تركت سليزيا فى قبضة النمسا . فدعونى إذن أخبركم إننى أنوى مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته ؛ متحدياً فى ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذلل هـذا كله . ولا مندوحة لى عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأتصرف .

فأبلغوا تصميمى إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذى لابد آت ، وأخبروهم أننى أشعر بأن لدى من الأسباب مايبرر مطالبتى إياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل بخطر ببالى — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستتصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرنى جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك فى كل وجه بدوره) فنى استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم منى . . . .

كنت عليما بأن أحداً منكم لن يتركنى . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فإن مت قبـــل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ماسمعتموه منى .

وسأجرد فرقة الفرسان التى لاتلتى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تتردد ، أياً كان الخطر الذى تواجهه ، فإنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبى من ستراتها .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم »[٤٠] .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام فى معركة مع فردريك متبعين فى ذلك سياسة فابيوس الرومانى ، وترددوا فى وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسى وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك فى المعركة مخالفين فى ذلك نصيحة المرشال داون. وعليه . فنى ٥ ديسمبر ١٧٥٧ زحفت هـــذه البيادق فى لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم فى أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الأيات وهى وحدها تبوىء فردريك مكاناً فى الطليعة بين القواد »[٤١] وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً لمدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديمـــاً ابامينونداس الطيبى ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل فى خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التى تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن فى جيشه، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم فى التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لاذوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠٫٠٠٠ — وهو صيد لم يسبق له نظير فى تاريخ الحرب [٤٢]) ، وترك ٣٫٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية فى أيدى البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة — ١٫١٤١ قتلى ، و١١٨ر٥ جرحى، و٨٥ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيذيع أسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر [٤٣]) .

وواصل المنتصر انتصاره فى عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا : فلم يمض يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية فى برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافتات فى أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧٫٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شقايدنتز ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيعة . واعتكف الأمير شارل فى ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسيين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبومباور تغلبت عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماستها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماسة تذكر ، ولا رغبة صادقة فى مواصلة الافادة من ميزته فى هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير ١٧٥٨ ، وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الدينى وهو يلعب دور القائد [٤٤] : وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التى تقدم بها الدوق فريناند البرنزويكى، فسلموا له ميندن فى مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير[٤٥].

وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو فى كريفيلد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق دكونتا ، وانضم سوبيز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلى معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت انجلترة بموسم الانتصارات هذا ، فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعدته فيها بمعونة قدرها ٦٧٠ر٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد [٤٦] . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التى فتحها ، مسويا فى ذلك بينهما وبين بروسيا التى أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة ، واستأجر (كفولتير) الماليين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية[٤٧]. فما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥ر٠٠٠ مقاتل . وفى أبريل هاجم شقايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠ر٠٠٠ مقاتل إلى أولموتز فى موافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوى الرئيسى (الذى نظم من جديد تحت قيادة داون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هـذا الحصن النمساوى .

ولكن فى نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠ر٠٠٠ روسى يقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوستزين ، التى لاتبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولموتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥ر٠٠٠ مقاتل . وفى الطريق نمى إليه بنأ مرضى

فلهلمينى الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « ياأعز أهلى ، ياأقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا — لأجل كل ماهو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعينى اتعزى بزرف الدموع على صدرك »(٤٨) .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودوفا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ، وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقى بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكه المفضل، وهو الهجوم على الجناح، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لا يقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النمساويين أو الفرنسيين وكسب سيدلتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أمجاد يوم تنافس فيه العدوان فى التقتيل . وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير ؛ وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وجريح و ١,٠٠٠ أسير .

ولكن منذا الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠ سويدى مخترقة بومرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطر كبير من إمارة برندنبورج ، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى ، يقودهم الجنرال هارش ، سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولا ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلا فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسوينا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثبطت همتهم وأخذوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند هوخكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو ، وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، فى الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التى رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر فى تهور وهو يحاول استعادة النظام ؛ فوفق فى ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر فى الانتحار . فأمام قائد كفء كداون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل فى انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، ففى غداة هوخكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « فى استطاعتى أن أختم المأساة حين أشاء »[٤٩] . فى ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهلمينى تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها فى قبرها[٥٠] . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً فى ذكراها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية [٥١] لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما فى رثاء الملك الذى ضمنه « تاريخ حرب السنين السبع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحيتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكينة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط فى بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما فى تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانفصام بفضل وفائهما المتبادل فى كل امتحان يبتليان به »[٥٢] .

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية فى ساحة القتال. ففى ١٣ أبريل ١٧٥٩ فى بيرجن (قرب فرانكفوت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولى بكفاية فرديناند البرنزويكى طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته فى مندن ؛ فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألمانى، وإنجليزى، واسكتلندى هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسى يقودهم برولى وكونتار هزيمة منكرة ؛ وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشئومة فى الشرق .

ذلك أنه فى ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٥٠,٠٠٠ روسى وكرواتى وقوازق ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شىء فى طريق سيل روسى عرم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك من سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داون ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات فى الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ نمساوى يقودهم الجنرال لاودون كانو أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفى ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشرى القابل للاستهلاك منذ المذابح التى تبارى فيها الأعداء فى حرب الوراثة الاسبانية — وخاضا عند كونرزدوف (٢ على ستين ميلا شرقى برلين) أقسى معارك هذه الحرب — وأفجعها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتى عشرة ساعة لاح أن الحظ فى جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المنهوكى القوى وطاردوهم فى هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات فى الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحته ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة فى جيبه رصاصة كان يمكن أن تودى بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » [٥٣] وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلا : « ياأبنائى لا تتركونى الآن ، أنا ملككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قدحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ،وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألمانى .

وحالماً وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنرى رسالة يقول فيها « لم يبق لى فى هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل، ولم أعد السيد المسيطر على قواتى .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنرى . ثم أرتمى على بعض القش واستغرق فى النوم .

وفى الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجلين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن لشىء فلأنهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلا من هذا أعادتنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين فى جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقعاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ،لأنهم كانوا فى أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر ، وخط المواصلات مع بولندة طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم فى قتال فردريك .ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنرى قد سحب قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

فى درسدن ، وهوكورت فون شمتاو ، خادماً وفياً للملك ، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف ، بأن كل شيء قد ضاع ، يئس من المقاومة المجدية . وكان جيش امبراطورى عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة فى قذف المدينة بالمدافع من الشرق. وعليه ففى ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفى ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد فى الطريق إليه .. وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقراً شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر فى الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ — ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى فى البيوت ؛ أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة ، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون فى قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكرين من الأرواح ما كاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل ، ففى ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل[٥٤]. وفى ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول : « لو طالت هذه الحرب لارتدت أوربا إلى دياجير الجهل ، ولأصبح معاصرونا أشبه بالوحوش الضارية »[٥٥].

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا فى المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولا ليغزو انجلترة ، ولكن الإنجليز دمروه فى خليج كويبيرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براعة . وفى ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت فى تعيين إتيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاشات ، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضياتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العامين بجمع الضرائب . وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلا على شكل اختزل إلى أبسط صوره.

وفى ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفى ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه القضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التى تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن فى ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفى ٢١ نوفمبر أقيل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حربا ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك فى أمر الصلح فى يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسنا ، متينا ، شريفا » ، وفى ٢٢ سبتمبر أضاف فى رسالة أخرى لفوليتر هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبدا : أولا : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيدا [٥٦] . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التى كتب احدها بعد هزيمة كونرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المفاوضة . ثم هناك الحليف الوفى بت ، المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ ــ بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاتل فيه الخصوم فى أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة فى خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفى أمريكا الشمالية ، وفى الهند . فى تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الأمبراطورية البريطانية قد اتخذت فى القرن السابع عشر ، وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدى الهولنديين إلى أيدى الانجليز . أما الثانية فحددتها معاهدة أوترخت (١٧١٣) التى منحت انجلترة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

فى أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتيغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم فى إثراء تجار انجلترة (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع فى الأسطول البريطانى. فما حلت سنة ٥٨ (٥٧) حتى كان للانجليز ١٥٦ سفينة حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة فى بناء الأمبراطورية هى اضعاف القوة الفرنسية فى البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو فى مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسى أمام لاجوس ، بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر فى خليج كويبيرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مايونا من الجنيهات فى ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين فى ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطى ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى ، بل شملت حوض المسيسبى من البحيرات إلى خليج المكسيك ، لا بل أن وادى نهر أوهايو كان فى قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج — التى كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية فى أمريكا نحو الغرب. ولولم تنتصر انجلترة فى حرب السنين السبع لإنقسمت أمريكا الشمالية إلى انجلترا جديدة فى الشرق ، وفرنسا جديدة فى الوسط ، وأسبانيا جديدة فى الغرب ، ولتكررت نسخة من انقسامات أوربا وصراعاتها فى أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين فى ممتلكاتهم ، ولا أحرارا فى نموهم ، مالم يوقف الفرنسيين فى توسعهم الأمريكى ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فور دوكين .

كانت كندا ولويزيانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى انجلترة

وفرنسا هى كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى « المستوطنين » ؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لوبيورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفى ٢ يونيو١٧٥٨ حاصر لوبيرج اسطول انجليزى صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل ١٨ر٠٠٠ جندى يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و٦ر٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطانى التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاتلت الحامية ببسالة ، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو١٧٥٨) بداية الفتح البريطانى لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركيز دمونكالم وبطولته فى تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الجنود النظاميين فى كندا ، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى فى الإدارة الفرنسية — الكندية من فساد وخلل ، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد : وفى ١٧٥٧ حاصر قلعة وليم هنرى واستولى عليها ؛ وهى تقع على رأس بحيرة جورج . وفى ١٧٥٨ هزم ١٥ر٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تيكوند روجا بقوة قوامها ٣ر٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريعه حين دافع عن كوبيك بقوة قوامها ١٥ر٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزى جيمس وولف الذى لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندى . وتقدم وولف بنفسه جنوده فى تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر (١٢ — ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفى ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودربى — كافانيال ، حاكم كندا الفرنسى ، وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجموا الجزر الفرنسية فى البحر الكاريبى . فاستولوا على جودلوب فى ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك فى ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية فى جزر الهند الغربية —

باستثناء سان — دومنج — فى قبضة بريطانيا . وطلبا للمزيد من مكاسب النصر أرسل بت الأساطيل إلى افريقا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربى ، فاستولت عليها ، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحل ثغرها الرئيسى فى فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد فى جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة بتلبية الطلب على العبيد (٥٨). وينبغى أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة فى هذه العملية الأمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفى انجلترة بدأت حركة مقاومه الرق تتخذ شكلا فعالا .

وفى غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها فى مدراس (١٦٣٩) ، وبمباى (١٦٦٨) وبوندتشيرى ، جنوبى مدراس (١٦٨٣) ، وفى شندرناجور شمال كلكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت فى الوقت الذى اضمحل فيه حكم المغول فى الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وانجلترة قد اشتبكتا معاً فى الهنـــد ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صلح إكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . فنى مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزى يقوده الأميرال تشارلز وطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشير يدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين ، وفى ٢٣ يونيو ، وبقوة لاتزيد على ٣٫٢٠٠ جندى ، هزم كلايف ٥٠٫٠٠٠ هندوكى وفرنسى عند بلاسى (على ثمانين ميلا شمال كلكتا) فى معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفى أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول انجليزى بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسى الذى كان يحمى الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار انجلترة إلا مسألة شهور. فى ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بحرا الحصار الفرنسى الذى فرضه على مدراس الكونت دلاللى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة فى واندیووش فى ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندتشيرى للبريطانيين فى ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لامبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والذكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الأمبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطوية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فان حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية ــ أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً ــ كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ ــ الأعياء : ١٧٦٠ ــ ٦٢

ترى ماذا كان الثعلب البروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩ــ٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدربهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . ففى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان ــ سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهترة التى كان فولتير قد حملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت ــ على المين. وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضباً ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك .وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة ، وأمر صديقه المركيز دارجانس (مدير الفنون الجميلة فى أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيحة » منقاة بعناية . فما لبثت الطبعة أن صدرت فى مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ للحرب من جديد . وفى ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نبلغ بعد نهاية المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية فى نفسى . وأنا ألوز بالرواقية ما استطعت . لقد غدوت عجوزاً ، محطماً ، أشيب الشعر مجعد البشرة ؛ وأنا أفقد أسنانى ومرحى [٥٩].

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل فى أى الحكام سيضنى أكثر الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا فى إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ نمساوى فى سليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم الأمير هنرى ؛ وكان داون فى درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقا وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب مايسن ؛ وكان الفرنسيون وعددهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠ يقودهم فرديناند ، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل . وفى ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا [٦٠].

وكان لاودون البادىء بإراقة دماء عام ١٧٦٠ ، إذ سحق ١٣,٠٠٠ بروسى عند لاندشوت (٢٣ يوليو) . وفى ١٠ يوليو شرع فردريك فى حصار درسدن بمدفعية ثقيلة ، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة فى ألمانيا ، ولكن القصف لم يجده شيئاً ، فلمانعى إليه أن لاودون يقترب من برزلاو أقلع عن الحصار ، وسير رجاله مائة ميل فى خمسة أيام والتقى بجيش لاودون فى ليبرج (١٥ أغسطس ١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل ، ثم دخل برزلاو . ولكن فى ٩ أكتوبر استولى جيش قوازقى يقوده فرمور على برلين ، ونهب مستودعاتها الحربية ، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية التى كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدومه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا ، وفى طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وماكل إنسان يتاح له أن يفعل ماتفعل . فعلى الثور أن يحرث الأرض ، وعلى البلبل أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلىّ أن أقاتل» (٦١).

وعند تورجاو على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ ؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه فى المؤخرة ؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن فى الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة فى صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها ، وصرع على الأرض فاقد الوعى ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه» ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محتفظاً بدوسدن منتظراً فى صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . ففى انجلترا كان موت جورج الثانى (٢٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وإرتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير ، بمثابة تصديق ملكى على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبئاً باهظاً . وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض انجلترة لعقد صلح منفرد ، ولكن بت رفض ، وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلى برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها « ميثاقاً عائلياً » بين لملكين البوربونيين ؛ أغراها فيه بالإنضمام إلى الحلف المعادى لبروسيا ، وتضافرت التطورات الحربيه مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فرديك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمه النكراء . فقد استطاع لاودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسى ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلا تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفى أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شقايدنتز ومستودعاتهـــا . وفى ٥ أكتوبر استقال بت ، مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خلفه إيرل بيوت أن قضية فردريك ميئوس منها ، وأن المفاوضة للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فألح على فردريك فى أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالى ودعت أوربا كلها تقريباً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بذل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل فى النصر ، وأنذروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى ، وأنهم يستستامون إذا هوجموا [٦٢] وماانحتم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففى ٥ يناير ١٧٦٢ ، [٦٣] ماتت القيصرة اليزافيتا التى تمقت فرديك ، وخلفها بطرس الثالث الذى كان يعجب به مثلا أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالا ويطعموا ويطلق سراحهم . وفى ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفى ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفى ٢٢ مايو حذت السويد حذو روسيا . وفى يونيو دخل بطرس الحرب من جديد ، ولكن حليفاً لبروسيا ، وارتدى حـــلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاى الملك » . فكان هـــذا من أعجب الانقلابات فى التاريخ .

ولقد أدهما صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشىء على أن بطرس رجل مختل العقل ، وأفزعه أن يسمع برغبة بطرس فى مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده ليثنيه ، ولكن بطرس أصر ، وأخيرا — فى رواية فردريك — « اضطررت لإلتزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره »[٦٤] .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجنود الروسية بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدا اياها بتأييد التخلى لها عن أقاليم بروسية ، ولكن اوتر رفض ، وندد فردريك ببيوت لأنه وغد[٦٥] . وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للاقاليم الروسية كلها ، وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردرياك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردرياك يتجهز لهجوم على داون . فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة ثلاثة أيام . وهزم فردريك داون فى بوركرزدورف (٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزرنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فأنه ساق النمساويين أمامه ، واستولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤ر٠٠٠ مقاتل ، ٣٩ر٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة التى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ — الصـلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوربا كلها ، وأولها بروسيا ، التى جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر ممـا تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا ففقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتهـا ، وأوشكت تجارتها أن تختفى من البحار . وأما انجلترة فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغانمها .

وفى ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل فى تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان انجلترة سترد جواديلوب والمارتنيك ، ولفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، باقليمى فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدرلاند[٦٦] . وندد بت بهذه المقترحات ببلاغة ملتهبة ، ولكن الرأى العام أيد بيوت ، وفى ٥ نوفمبر وقعت انجلترة والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتنبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت انجلترة لفرنسا وأسبانيا فتوحها فى البحر الكاريبى . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضى البروسية فى غرب ألمانيا . وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية فى الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترة ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بألا تبرم صلحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أعفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن فى استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبطت همتهما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها . فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار ، وكان ١٠٠ر٠٠٠ تركى يزحفون على المجر ، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه الهدنة ، فقبلها ، وفى هوبرتوزبرج (قرب ليبزج) ، فى ٥ — ١٥ فبراير ١٧٦٣ ، وقعت بروسيا ، والنمسا ، وسكسونيا ، والأمراء الألمان ، المعاهدة التى أنهت حرب السنين السبع . وبعد كل ما أريق من دماء ودوقاتيات ، وروبلات ، وطالرات وكرونات ، وفرنكات ، وجنيهات ، أعيد «الوضع السابق للحرب» فى القارة . واحتفظ فردريك بسيليزيا ، وجلاتز ، وفيزل ، وجلدرلاند ، وأخلى سكسونيا ، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا على الرومان ، وإذن امبراطورا مستقبلا . وعند التوقيع النهائى هنأ فردريك مساعدوه على « أسعد أيام حياتك » ، فأجاب بأن أسعـــد أيام حياتة سيكون آخرها (٦٧) .

ماذا كانت نتائج الحرب ؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب قدره ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إيكو . وقضى على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم الأصحاب التقليديين للقب الأمبراطورى ، وقد عامل فردريك ماريا تريزا معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية — مجرية ، لا رومانية مقدسة ، وترك أمراء الأمبراطورية الألمان الآن وشأنهم ، وسرعان ما سيخضعون لزعامة بروسيا فى الرايش ، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان آل هوهنتسولرن ، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك . وبدأت النزعتان الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعتزة باستقلالها عن غيرها من الدويلات . وحفز الأدب الألمانى فأنجب شتورم ودرانج ، ثم صعد إلى جوته وشيلر .

أما السويد ففقدت ٢٥,٠٠٠ رجل ، ولم تغنم غير الديون . وأما الروسيا ففقدت ١٢٠,٠٠٠ رجل بين المعارك ، والشدائد ، والأمراض ، ولكنها ستعوضهم عما قليل ، ولقد فتحت عهدا جديداً فى تاريخها الحديث بزحف جيوشها فى الغرب ، وأصبح تقسيم بولندة الآن أمرا لا مناص منه ، وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة فى مستعمراتها وتجارتها ، وحالة

قريبة من الافلاس دفعتها خطوة أخرى إلى الأنهيار . وأما انجلترة فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعماؤها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس امبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة فى العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨,٠٠٠ بروسى (حسب تقدير فردريك) [٦٨] فى المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفى بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ فى ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا !) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقذا لها ، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التى قدت من فولاذ فهتف « عاش شعبى العزيز طويلا ! عاش أبنائى طويلا . » [٦٩] لقد كان فى قدرته أن يتواضع ؛ وفى الساعة التى تملقه فيها الجميع لم ينسى الأخطاء الكثيرة التى ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسيليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد فى الحادية والخمسين ، واحدودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشاؤه بالمغص ، والإسهال ، والبواسير [٧٠] وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة : وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما أخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه بحكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهى ظهور الامبراطورية البريطانية ، وانبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهى التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذاك الذى يعد بتدمير السلع المشتراه فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكلبية ؛ والفوضى الخلقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ « لولا هذه الحملة لما أدركت قط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان ، [٧٢] ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعما قليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى انجلترة من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل ببروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكيين ؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .